مجلة رفوف – جامعة أحمد دراية – ولاية أدرار (الجزائر)

المجلد: التاسع/ العـدد: الأول (2021)، ص 161– 177

الحجاج في خطاب التذكير عند الشيخ عبد الحميد بن باديس

The argument in the reminder speech at Sheikh Abdul Hamid bin Badis

أم الخير بامهدي1، الأستاذ الدكتور: إدريس بن خويا[2]

Oumelkheir BAMEHDI[1], Idriss BEN KHOIA[2]

1 جامعة أدرار (الجزائر)، bam-oumel@univ-adrar.dz

2 مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا (الجزائر)،benkhoia.idriss@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/11/30	تاريخ القبول: 2021/01/14	تاريخ النشر : 2021/01/28

الملخص: يسعى هذا البحث إلى الوقوف على أهم المظاهر الحجاجية للنص التفسيري عند الشيخ عبد الحميد بن باديس، حيث يعتبر الحجاج فضاءً مفتوحا على مختلف المعارف الإنسانية، الشيء الذي جعل الباحثين يركّزون اهتمامهم وبحوثهم عليه.ويعد النص التفسيري من ضمن النصوص الحجاجية انطلاقا من بِنْيَته، من انتقاء الوسائل اللغوية (ألفاظا وتراكيبا)، ومعرفة بمستويات التعبير واختيار الأساليب، لِيُكَوَّن في الأخير نصا تفسيريا في مستوى لغوي يتماشى وروح العصر وما يقتضيه الحال، وهي السمة التي تميّز الخطاب التفسيري عند ابن باديس.لذا يهدف المقال إلى إبراز أهم الآليات التي تحدد سمات الخطاب الحجاجي عند ابن باديس.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، خطاب التفسير، النص، مستويات التعبير، مقتضى الحال.

The argument in the reminder speech at Sheikh Abdul Hamid bin Badis

Abstract

This article aims at identifying the most important argumentative aspects in the explanatory text in Ben Badis' works. The argument is considered as an opened space for different human knowledge, which led researchers focusing their interests and works on it. The explanatory text is considered as one or as part of argumentative texts stating from its structure, from the selection of linguistic means and its awareness of the expression levels and the selection of methods and styles, in order to have at the end an explanatory text at linguistic level, side to side with the modern spirit, and what is the nowadays requirement, which is the feature that characterizes the explanatory speech of Ben Badis. Therefore, the aim of the article is to highlight the most important mechanisms that characterize the argumentative speech of Ben Badis.

Keywords: Argument , Explanatory, Speech, Texts, Expression levels, Appropriate circumstances.

المؤلف المرسل: أم الخير بامهدي، **الإيميل**: nour081989@mail.com

1.مقدمة:

تتعدّد أوجه التخاطب الإنساني وتتنوع بين خطابات كتابية وأخرى شفهية، كما تتعدّد وظائف هذه الخطابات وتتباين، وتعتبر الوظيفة الحجاجية من أبرزها؛ ذلك أنها تعدّ ركيزة أساسية موجّهة متضمنة للمقصدية والنقاش والنقد والجدل، في نصوص تختلف مجالاتها منها: النصوص القرآنية، الفقهية، التفسيرية، الأدبية، الفلسفية ...

تعدّ نصوص تفسير القرآن مدونة لغوية تشتمل على مختلف البحوث اللغوية سيما المستجدّة منها؛ فنجد المفسّر عالما باللغة وقواعدها الصرفية والنحوية، وكذا أساليبها البلاغية و أحوال سامعيه، آخذا بكل ما يخدم وظيفته التفسيرية ويضمن نجاح خطابه من استراتيجيات وتقنيات وآليات التي من بينها الحجاج أو المحاججة.

وقد عمد ابن باديس في تفسيره هذا إلى هذه الإستراتيجية، فوظّف الحجاج ليوصل مستمعه(القارئ) إلى درجة الاقتناع، فيسعى إلى تطبيق ما ورد في هذا البيان والعمل به. فكيف سعى إلى ذلك؟ وما هي خطته وتقنيته؟ وهل نجح في خطابه الحجاجي؟

2. الحجاج التداولي مفهومه وضوابطه:

الحجاج في اللغة والاصطلاح:

يقال:« حاجَجْتُه أحاجُّه حِجاجا ومُحاجَّةً حتىّ حَجَجْتُه أي غلبته بالحجج التي أدليت بها؛ ... وقيل الحُجّة ما دوفِع به الخصم؛ وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج أي جَدِلٌ. والتّحاجُّ: التّخاصم؛ وجمع الحجّة: حُجج وحِجاجٌ. وحاجَّهُ مُحاجَّةً وحِجاجاً: نازعه الحجّة وحجّه يحُجُّه حجًّا: غلبه على حُجّته...») ابن منظور(1414, p. 228 ,

يشير المعنى اللغوي للفظ(حَجَجَ) إلى الجدل والتخاصم بين طرفين أو أكثر (في قضية ما)، كل ونظرته وحجّته وبرهانه ودليله على تبنّيه موقفا ما في قضية ما. وبالتالي فإن «أساس الحجاج هاهنا هو التركيز على دليل لإثبات قضية معينة، أو بناء موقف من المواقف المعينة». (جربوعة، 2016، صفحة357).

يعرّف طه عبد الرحمان الحجاج بقوله:« وحدُّ الحجاج أنّه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي؛ إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة و مطالب

إخبارية وتوجّهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة علمية، موجّها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صورة استدلالية أوسع و أغنى من البنيات البرهانية الضيقة»(طه، 2000، صفحة 65)

فالحجاج التداولي و الجدلي هو الحجاج ذو الطابع الفكري والاجتماعي، الذي يجعل لطرف الخطاب أهمية أثناء المحاججة، من التزام بمقام الخطاب ومعارف مشتركة بين طرفي الخطاب...؛لأنه(المرسل) يروم في الأخير إقناع متلقيه.

أما إذا نظرنا للحجاج(في اللغة) بصفة عامة، فهو نابع من(نظرية الحجاج)، التي انبثقت في اللغة من داخل نظرية الأفعال اللغوية؛ فقد طوّر ديكرو أفكار أوستين واقترح إضافة فعلين لغويين هما: فعل الاقتضاء وفعل الحجاج، كما قام بإعادة تعريف مفهوم الإنجاز، مع حفاظه على فكرة عرفية اللغة، والإنجاز عنده هو: فعل لغوي موجّه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية، أي مجموعة من الحقوق والواجبات.

وبما أن فعل الحجاج هو الفعل الوحيد الذي يسير فيه الحوار، فهو يفرض على المخاطَب نمطاً معيّنا من النتائج، ويأخذ الخطاب قيمته الحجاجية حسب تناميه واستمراره، لأنّها نوع من الإلزام يتعلّق بالطريقة التي يسلكها هذا الخطاب.(النقاري، 2006، صفحة 56)

فالحجاج خطاب يأخذ طابعه التواصلي من حواريته، لأنه خطاب بين طرفين يروم أحدهما لإقناع الآخر عن طريق مجموعة من الحجج يوردها بشكل دقيق حسب ضوابط تجعل هذا الخطاب خطابا حجاجيا تداوليا.

2.2 **ضوابط الحجاج التداولي:** للخطاب الحجاجي سمات تجعله في دائرة التداول هي:

- كون الحجاج في إطار الثوابت الدينية أو العرفية.
- أن تكون دلالة الألفاظ محددة وكذا المرجع الذي يحيل عليه الخطاب، لأجل إكساب الخطاب الدقة والنهاية.
- ألا يقع المرسل في التناقض بقوله أو بفعله.
- موافقة الحجاج لما يقبله العقل، وإلاّ بدا الخطاب زائفا والحجة واهية.
- توفّر المعارف المشتركة بين طرفي الخطاب لكي لا ينقطع الحجاج بينهما فتتوقف عملية الفهم والإفهام أو بالأحرى الإقناع.

- أن يكوّن المرسل صورة عن المرسل إليه قريبة إلى الواقع قدر الإمكان. فاختيار الحجج وترتيبها وفق الأولوية متوقف على هذه المعرفة، وكذا تركيب الخطاب برمّته.
- مناسبة الخطاب الحجاجي للسياق العام.
- أن يخلو الحجاج من الإبهام والمغالطة، وأن يبتعد المحاجج عنهما قدر الإمكان.
- امتلاك المرسل ثقافة واسعة، خاصة ما يتعلق بالمجال الذي يدور ضمنه الحجاج.
- خضوع فعل الحجاج لشروط الحجة المثبتة والحجة المنفية.(الشهري، 2004، الصفحات 465-469)

3.ابن باديس المفسّر المحاجج (المؤهلات العلمية):

يرتكز عمل المفسر على البيان، إذ يجنح إلى اختيار الحجج والبراهين المبيّنة للنص القرآني باسطا إياها بطريقة حجاجية، تحمل المتلقي على التقيد بما ورد في هذا البيان أو العمل به.

فقد كان ابن باديس (رحمه الله) شديد الحرص على تبليغ رسالة القرآن بلغة معاصرة، وهدفه من ذلك هو بناء مجتمع إسلامي يتلاءم مع روح العصر وروح الإسلام معاً؛ والظاهر أنه وُفّق في ذلك، لأن الجزائر لم تخرج من محنتها إلى أن بعثت فيها النهضة العلمية والفكرية ورائدها هو الشيخ عبد الحميد بن باديس.

فربط في تفسيره معاني القرآن بالواقع الذي تعيشه الأمة، وبحركة الحياة وسلوك الإنسان وما تعتصره من مشكلات، وما يكابده من مشاق، كان يعاني منها وهو تحت نير الاستعمار الفرنسي. وتحوّل التفسير بذلك إلى مسار عودة إلى كتاب الله، وإلى حلقة وصل بين القرآن والحياة، دون تكلف لا من جهة لغة أو أسلوب.(بن باديس، 1995، الصفحات 19-21)

قبل الولوج إلى الخطوط العريضة لمحاججة الإمام ابن باديس في تفسيره تجدر الإشارة إلى مفهوم التفسير عنده، حيث إن تفسير القرآن«تفهّم لمعانيه وأحكامه وحكمه وآدابه ومواعظه. والتفهم تابع للفهم؛ فمن حسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه.»(بن باديس، صفحة 17)

هذا التعريف في الحقيقة منسوب للبشير الإبراهيمي، إلا أن كل من الشيخين يعدّان من نفس الاتجاه والوجهة، والأمر عندهما سيّان.

فالغرض من تفسير القرآن هو تفهيم معاني وأحكام القرآن لعامة المسلمين،ليكون لهم نبراساً وهدى، منبع الآداب والتفقه في أسراره وأسرار هذا الكون الفسيح،ليكونواْ في الأخير خير خلف لخير سلف لهم كل القدرة على النهوض بالجزائر مادياً وثقافياً.

قال ابن باديس :«إنّنا –و الحمد لله –نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن الكريم في كل يوم وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً لَرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذا الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها.»(طالبي، 1417هـ-1997م، صفحة 142).

ويمكن تلخيص النقاط التي عدّ بها مفسّرا محاججا في ما يلي:

- علمه باللغة.
- علمه بالنحو لارتباط المعنى التفسيري بوجوه الإعراب.
- علمه بالصرف.
- علمه بالاشتقاق لأن المعنى مرتبط بالمادة الاشتقاقية.
- أخذه بالعلوم الثلاث: المعاني، البيان، البديع.
- علمه بالقرآن وعلومه.
- علمه بأصول الدين(العقيدة).

المنهاج و الوسائل الحجاجية المستخدمة في التفسير:

لقد سار الإمام ابن باديس في تفسيره على منهج السلف،وتمكّن من تطبيق هذا المنهج على أحسن وجه؛معتمداً على بيان القرآن للقرآن وبيان السنة له،وعلى أصول البيان العربي وسننه،والنفاذ إلى لغة العرب وآدابها،وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الإنساني،وتطور التاريخ والأمر،دارساً آيات القرآن وما تنطوي عليه من الدعوة إلى النظر في تجارب الأمم وتطورات الأحداث وما تخضع له من سنن وقوانين لا تتبدل ولا تتحول.(طالبي، 1417هـ-1997م، صفحة 92)

1) اعتماده في تفسيره على بيان القرآن بالقرآن،وعن هذا يقول:«وما أكثر ما تجد في القرآن !!،فاجعله من بالك تهتد-إن شاء الله-إليه.»(بن باديس، 1995، صفحة 243)

أي ما أكثر ما تجد من الآيات القرآنية بيانها في آيات قرآنية أخرى غير هذه الآيات.مثال هذا:ما بيّنه عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا(75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(76) ﴾ (الفرقان : 75-76)، إذ يقول تحت هذا العنوان(بيان القرآن للقرآن):«في هذه الآية إنّهم يلقون تحية وسلاما، وقد بيّن من يتلقّاهم بذلك في قوله تعالى:﴿ وَسِيقَ الذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى

الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتَ اَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر:73). فالملائكة هم الذين يتلقّونهم في السلام والدّعاء لهم بالطيّب،وهو مما يدخل في التحية.»(بن باديس، 1995، الصفحات 242-243).

2) توسّعه في البيان بإيراد وُجوه الاحتمالات المتناسبة لآية أو عدة آيات قرآنية؛ هذه الاحتمالات هي وُجوه القراءات في ألفاظ القرآن الكريم، التي بها تكثُر معاني الآية الواحدة،حتى نكاد نصل في الأخير نتيجة الجمع بين القراءات المختلفة بمعنى جديد للآية .(باي زكوب، 2011، صفحة 117)

يوضّح هذا تفسيره لقوله تعالى من سورة الفرقان الآية[72]:﴿ وَالذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ (سورة الفرقان الآية 72) .يقول:«﴿لا يَشْهدُونَ ﴾ يُحتمل أن يكون من الشُّهود، وأن يكون من الشهادة...فإذا كان ﴿لاَ يَشْهَدُونَ ﴾بمعنى لا يحضرون، فالزور مفعول به،وإذا كان بمعنى لا يُخبِرون فالزور مفعول مطلق بعد حذف المضاف. والأصل: ولا يشهدون شهادة الزور.»(بن باديس، 1995، صفحة 229).

بعد هذا يرجّح الوجه (الاحتمال)الأول لاشتماله؛ على أن الذي لا يحضر مجالس الباطل لا يشهد بالزور من الأساس.

ويستعرض نظير احتمال الآية وجهين، تكون بقراءتين كآيتين، ممثلاً بقوله تعالى:﴿ :﴿ يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمُ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمُ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمُ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾(المائدة: 06).فـ﴿أَرْجُلَكُمْ ﴾تكون كما يقول: «بالنصب عطفاً على الوجه فيفيد غسل الأرجل، وتلك الحالة الأصلية العامة. وبالخفض عطفاً على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هي الحالة الرخصة عند لبس الخفاف.»(بن باديس، 1995، صفحة 230)

من استعراض هذه الأمثلة يتأكد لنا ما أثبتته المصادر حول أهمية النحو في توجيه القراءة القرآنية ، وبالتالي ثبوت الحكم المناسب الذي تشتمل عليه الآية القرآنية.

3) لجوؤه إلى بيان القرآن بالسنة النبوية الصحيحة، وقد صرّح بمكانة ومنزلة التفسير حين يستند إلى الأحاديث الصحيحة في قوله:«وما أحسن التفسير عندما تعضده الأحاديث الصحاح !! »(بن باديس، 1995، صفحة 187).

حتى إنه ليضع عنواناً لذلك(تفسير نبوي)،(بن باديس، 1995، الصفحات 133-341)ومثال هذا ما أورده في تفسير قوله تعالى:﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾(سورة الإسراء: 78). فمشهوداً بمعنى محضوراً، ويُفسّرها حديث النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تَفْضُلُ صَلاةُ الجَميع صَلاةَ أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر.ثم يقول أبوهريرة فأقرءواْ إن شئتم: ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾.»(البخاري، صفحة 164)

فالحديث النبوي الشريف بيّن بأن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.(بن باديس، 1995، صفحة 133)

كما بيّن مكانة السنة الشريفة بالنسبة للقرآن في أنها بيان له وتفسير؛موضّحاً هذا في مثال ساقه عند اختلاف الدّعاة عليك،كل منهم يدعوك إلى الله تعالى؛بأن تنظر فيمن يدعوك بالقرآن إلى القرآن،ثم ما صح من السنة لأنها بيان له تفسير.فيكون اتّباعك له لاتّباعه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في دعوته وجهاده بالقرآن.(بن باديس، 1995، صفحة 198)

4) استناده إلى أسباب النزول لتفسير ما جاء في القرآن مبهما،والكشف عن معانيه،ورَدّ ما جاء متشابها إلى أصله الراجح؛ فيسوق مثلا في تفسير قوله تعالى:﴿ وَالذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ الفرقان: 68)، ما ثبت في الصحيحين-عن سبب نزول الآية -أن عبد الله بن مسعود قال:«قال رجل: يا رسول الله، أيُّ الذَّنب أكبر عند الله؟قال: أن تدعو لله نداً وهو خلقك.قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مَخافَة من أن يُطعَم معك. قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله عز وجل تصديقها: "الذين لا يدعون مع الله إلهاً أخر..."»(مسلم، 2000، صفحة 70).

كما يستخرج ما يوجد بين الآية وسبب نزولها من مطابقة؛ في أنهما تواردا في الإثم الأول على شيء واحد، كما تواردا في الثاني والثالث، إلا أنّ في الحديث ذكر فرد من العام، وفي الآية ذكر العام.(بن باديس، 1995، صفحة 219).

أيضا سعى ابن باديس إلى تصحيح ما ورد في فضل المعوذتين و نزولهما؛ إذ إنّ أصحّ ما ورد في نزولهما ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر الجُهَني، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«أَلَم تر آياتٍ أنزِلت الليلة لم يُرَ خيرٌ منهنّ قط؟قل أعوذ بربِّ الفلق،وقل أعوذ بربِّ النّاس.»(مسلم، 2000، الصفحات 83-84).

على عكس من يذكر في نزولهما قصة سحر النبي صلى الله عليه وسلم(الواحيدي، 1991، الصفحات 502-504)،فقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما.(بن باديس، 1995، صفحة 368).

5) اعتماده ما نُقِل عن الصحابة في بيان القرآن،وأورد ما أخرجه البخاري في كتابه التفسير،عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:«خمس قد مضين:الدخان، القمر، والروم، والبطشة، واللزام»...(البخاري، صفحة 201).

6) ويورد لكل اسم من هذه الأسماء والآية التي اشتملت عليه يقول :«وعني بالدخان المذكور،في قوله تعالى:﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الدخان: 10)،و بالقمر المذكور في قوله تعالى:﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (القمر: 01)،و بالبطشة المذكورة في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (الدخان: 16)،و باللزام المذكور في هذه الآية في قوله تعالى:﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (الفرقان: 77).

وفسّر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر،وفسّر اللزام به أيضا.فهي في الحقيقة أربع وعدّها خمساً باعتبار الوصفين البطش والملازمة. »(بن باديس، 1995، صفحة 244)

كما فسّر الحسن البصري اللزام بعذاب يوم القيامة؛دفع هذا ابن باديس إلى أن يتّبع أسلافه و عادتهم في ذلك أن يفسّرواْ اللفظ بما يدخل في عمومه،دون قصد القصر عليه،لذا يكون تفسير الآية أنهم توعدواْ على تكذيبهم بلزومه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.(بن باديس، 1995، صفحة 345)

7) استمداده علم التفسير من أمهات المعاجم العربية و اهتمامه بالدقائق البلاغية،وحمل الآيات وربطها بوجوه مناسباتها،يقول في خطبة افتتاح له لدروس التفسير:«فقد عدنا –والحمد لله تعالى–إلى مجالس

التذكير،من دروس التفسير...على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية،وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية،وربط الآيات بوجوه المناسبات.»(بن باديس، 1995، صفحة 41)

8) وهدفه من هذا إيجاد بيان ما خفي فهمه من القرآن الكريم في ديوان العرب، وما حواه من أخبار وأمثال ونكت وأشعار كيف لا وهو الذي نزل متحدياً لهم في لغتهم و بيانهم.

مثال هذا ما ساقهُ في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ اِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ الإسراء: 36)، ويقول:« (القفو): إتِّباع الأثر، تقول: قفوته أقفوه، إذا اتَّبعت أثره. والمتبع لأثر شخص موال في سيره...ولكونه اتِّباعاً بغير علم، جاء في كلام العرب بمعنى قول الباطل قال جرير:

وطَالَ حِذاري خيفة البين والنوى وأُحدوثةٌ من كاشحٍ متقوِّفِ .(عيد، 1992، صفحة 462)»(بن باديس، 1995، صفحة 99)

فقد ركّز هنا على اختيار المادة(القفو)لاستجلاء المعنى،مع تأكيد المعنى بما جاء في كلام العرب ،كما لجأ إلى اللّطائف والدّقائق البلاغية لتعزيز معاني القرآن الكريم،وبيان إعجازه.يقول:« ومن دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة،أنّه يقدّم أوّلاً الاسمين المتلازمين في آية،لسر من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام ...ففي آية الناس قدّم الجِنّة على النّاس،لأن الحديث عن الوسوسة،وهي من شياطين الجن أخفى وأدق.»(باي زكوب، 2011، صفحة 127).

هذه من بين أوضح وأهم الدّقائق المنهجية والوسائل التي اعتمدها ليخرج نصا مفسّرا محكما يستطيع أن يغيّر به شعبا ذاق مرارة الاستعمار والجهل،ولعلّ القارئ الكريم إذا نظر فيه بتبصّر سيَسْتَجْلي ما غاب في هذا الجزء اليسير .

إنّ المتأمّل لتفسير ابن باديس يلفيه تفسيراً حياً ينبض بروح الحياة؛ نتيجة الربط و التنسيق بين ما يتعرّض له من قضايا، وما يعكس ذلك في الواقع الذي كانت الأمة الجزائرية تعيشه آنذاك؛ عارضاً إيّاه بأسلوب واضح، تام خال من السجع الطويل،والسّعي وراء الجدليات العنيفة والآراء المضطربة، والأقوال المتباينة، مراعياً – في خطابه– أحوال الحاضر و أمراض السامعين، دون التحليق بسامعيه وقرّائه بعيدا عن مقتضيات و حاجيات العصر، رادّاً ما وقف أمامه من معارضة أهل الباطل برفق و وقار، دون فُحش

أو فظاظة، مبيّناً للناس خطر قولهم وسوء مقصدهم حتى لا يقعوا فيما لا يُرضي الله عز وجل.(باي زكوب، 2011، صفحة 127).

أما التقنية التي اعتمدها في تفسيره فهي كما يلي :

-أنّه ينتخب آية قرآنية أو آيات متعدّدة واضعاً بذلك عنواناً يتناسب وهذه الآيات.
– يمهّد للقارئ بوضعه في جو النص المراد تفسيره.

– يورد فضل الآيات المختارة،وسبب نزولها،والمناسبة إن وُجدت .

– يعمد بعد هذا إلى شرح المفردات القرآنية شرحاً لغويا موجزاً، قصد تحديد المعنى اللغوي والاصطلاحي لمفردات الآيات التي انتخبها .

– تحديد المعنى الإجمالي للنص المفَسَّر مستنجداً في بعض الأحيان بوجوه إعراب هذا النص،إن كان يحتمل عدّة وجوه إعرابية،فيورد كل وجه بحسب معناه .

– وضعه بعض العناوين الفرعية الخاصة بكل موضوع من موضوعات الآيات القرآنية (المختارة)،والملاحظ أن هذه العناوين تمثّل مشروع ابن باديس في ربط هداية القرآن مع ما يعانيه المجتمع من مشكلات وأمراض.

ونمثّل لهذا ما جاء في تفسيره لقوله تعالى :﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: 125)، تحت عنوان: "كيف تكون الدعوة إلى الله والدفاع عنها "،وأدرج تحت هذا العنوان عشرين عنواناً هي: 1/سبيل الرب جل جلاله، 2/اهتداء،3/اقتداء،4/أركان الدعوة،5/استدلال واستنتاج،6/اهتداء واقتداء،7/الموعظة الحسنة،8/الاستدلال،9/بماذا تكون الموعظة،10/تفريق بالتمثيل،11/حسن الموعظة،12/تطبيق و استدلال،13/اهتداء واقتداء،14/تحذير،15/الجدال بالتي هي أحسن 16/اهتداء واقتداء،17/أحكام وتنزيل،18/علينا الدعوة والجدال وإلى الله الهدى والضلال والمجازاة على الأعمال،19/تحذير،20/ثمرة.(راجع صفحة الفهرس ،ص424–425.)

الملاحظ لهذه العناوين أنّها اشتملت على عناصر مرتبطة بالنص المراد تفسيره وأخرى فرعية مثل:اهتداء،اقتداء،استدلال ،استنتاج ...، كما قد يلجأ إلى التقسيم بحسب المباحث أو الفروع وحتى المسائل،وفي الأخير يختم بلطيفة سواءً كانت دعاء، أو ثمرة تشتمل على دعاء (بن باديس، 1995، صفحة 327).

هذا مثال بسيط حول التقنية التي اعتمدها ابن باديس في تفسيره (في مجالس التذكير)، ولا بدّ للقارئ الإطّلاع على هذا المصدر النفيس لمزيد البيان والتوضيح.

تجليات الحجاج في تفسير مجالس التذكير:

في هذا الجزء الأهم سنركّز على تفسير الشيخ للآيتين 56 و57 من سورة الإسراء(بن باديس، 1995، الصفحات 116-120)، لاستجلاء ما وقع فيهما من حجاج.

قال تعالى: ﴿قُلُ ادْعُوا الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً(56) أُوْلَئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمُ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾

ففي البداية يلجأ ابن باديس إلى شرح مفردات الآيتين، مفرّقا بين مصطلحين يظهران لغير المتبصّر أنهما مثلين وهما: العادة والعبادة في علاقتهما بالدعاء.

فالدعاء: هو النداء لطلب شيء من المدعو، وهو يقتصر على العاقل وما نزل منزلته مجازا من الجمادات، وإذا كان لشيء معظّم فوق الطاقة البشرية أو ما وراء الأشياء العادية سمي عبادة وهذا لا يكون إلا بين المخلوق وخالقه؛ فإذا كان بين المخلوقين بعضهم مع بعض في أغراض دنيوية سُمي" عادة".

وهنا عرّف ابن باديس الدعاء في الاصطلاح التداولي، بأنه فعل لغوي يدخل في خانة الطلبيات، ممهّدا للقارئ حتى يضعه في جو النص وقد استجلى ما قد يعيق أو يقع حاجزا مانعا أمام فهمه الصحيح لهذا الخطاب الرباني.

الزعم: القول بلا دليل.

من دونه: غيره. الملك: الاستيلاء على الشيء والتّمكن من التصرف فيه. كشف الضر: إزالته . ولا تحويلا: نقلا له إلى شخص آخر.

وهنا يوضّح ابن باديس انطلاقا من مفردات الآيتين، المعنى المقصود من القول؛ فقد أُمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم بظهور عجز من يدعون من دون الله. ثم ينتقل إلى الجانب النحوي الذي يعتبر جانبا مهما للتفسير، ففي مسألة حذف مفعولا "زعم"، يقدره بـ: "قل ادعوا الذين زعمتموهم آلهة"، ويحتج بالحجتين:

العلم بهما، ثم دعاؤهم لهم كونهم آلهة في زعمهم .

وفاء العطف في قوله:" فلا يملكون"، وهو يعتبرها غير سببية بحجة:

" أن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسبّبا عن الدعاء"، وهو ليس كذلك، "لأن عدم ملكهم متحقّق سواء دعوا أم لم يدعوا". و هنا يوضّح أن عدم ملكهم مطلق غير مقيّد بدعاء، انطلاقا من عامل النفي في الآية الذي لا ينشأ عنه مفهوم المخالفة، لأنه نفي لم يُرد به الإكذاب أو التكذيب.(الناجح، 2011، الصفحات 52-53)

معنى الآيتين: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك المتّخذين آلهة من دون الله يعبدونها: أُدعوا معبوداتكم هذه الزاعمين إياها آلهة من دون الله، حين ينزل بكم الضر وانظروا: هل تستطيع كشفه وإزالته عنكم؟ أو تحويله لغيركم؟ فإنكم تجدونها عاجزة عن ذلك، وإنما يقدر الإله الخالق الحق، فاعبدوه وحده واقلعوا عن عبادة ودعاء من سواه.

الأحكام الواردة فيهما:

توضيح أن دعاء غير الله (لدفع الضر أو جلب النفع) عبادة للمدعو.

تسمية الدعاء بالعبادة لدليل شرعي.

مفهوم العبادة ومكانة الدعاء منها.

عدم جواز دعاء غير الله من المخلوقين دفعا للضر أو جلبا للنفع.

كشف الضر وتحويله هو للمعبود الحق ويوضّح ذلك سياق الآية.

استنتاج:

الشرط في تسمية الدعاء عبادة.

ضرب مثل.

إيراد حكم صاحب المثل.

مطابقة موضوع الاستنتاج للنظير.

تطبيق:

الرجوع للواقع وبحث الموضوع والظاهرة منه.

تحذير و إرشاد:

تحذير متلقي الخطاب التفسيري(الشعب الجزائري، العالم الإسلامي، العالم البشري) من التوجّه بشيء من الدعاء لغير الله، وأمره بتعميم الخطاب(ليشمل الغائب) بنشر حقائقه بين إخوانه.

الهدف من التحذير:

تنبيه الغافل، تعليم الجاهل، إقلاع الضالين عن ضلالهم.

النتيجة:

أداء أمانة العلم، القيام بفريضة النصح، خدمة الإسلام والمسلمين.

انطلاقا من هذا الخطاب يتّضح أنّ ابن باديس مفسّر محاجج؛ فهو استعمل في خطابه جملة من العوامل والروابط الحجاجية .

قبل الحديث عن هذه العوامل والروابط نتطرق إلى مفهومها.

مفهوم الروابط الحجاجية:

هي أدوات لغوية دورها الربط الحجاجي بين قضيتين، وترتيب درجاتها بوصف هذه القضايا حججا في الخطاب، ومن هذه الروابط: حتى، بل، لكن، فضلا عن...(الشهري، 2004، صفحة 508) ، وقد لجأ الشيخ إلى استعمالها حجاجيا من مثل:

الرابط "بل": وتكمن حجاجيته في أن المحاجج يرتب به الحجج في سلم حجاجي بين قضايا متعاكسة أو متعارضة، منها ما هو مثبت ومنها ما هو منفي، وهي أساسا حرف إضراب أي الإضراب عما قبلها. ونمثل بقول الشيخ:

الله حكم عدل حكيم خبير...(بن باديس، 1995، صفحة 124)

الفرضية الأولى: لا لوجوب أو إيجاب عليه.

الفرضية الثانية: بمحض مشيئته، ومقتضى عدله وحكمته. فقد ربطت "بل" بين الحكمين و عملت على الترتيب بينهما؛ فالفرضية الثانية أقوى درجة من الفرضية الأولى.

مفهوم العوامل الحجاجية:

تعرّف العوامل الحجاجية بأنها: مورفيمات إذا وجدت في ملفوظ تحول توجيه الإمكانات الحجاجية لهذا الملفوظ، وأما من حيث تموضعها في الخطاب فلا نجدها تربط بين متغيرات حجاجية أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج ولكنها تقوم بحصر وتقيد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما, وتضم

مقولة العوامل أدوات من قبيل : ربما – تقريبا– كاد – قليلاً – كثيراً – ما ... إلا، وجل أدوات القصر (العزاوي، 2006، صفحة 27).

من هذه الأدوات نأخذ مثالا مما قاله شيخنا:« الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الإنساني... فأقبل على روحك بالتزكية والتطهير، والترقية والتكميل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاقتداء بهم...»(بن باديس، 1995، صفحة 165)، يشتمل هذا القول على عامل حجاجي يتكون من أداة نفي وأداة استثناء، ووظيفته تكمن في تحديد الإمكانات الخاصة بالملفوظ، وتعمل على توجيهه شيء بعينه(أبو هنية، 2019، صفحة 21).

يتّضح من المثال أنّ الشيخ وظّف هذا العامل لما له من أهمية في تقييد الاحتمالات، فقد كان هدفه في الأخير توجيه السلوك الإنساني نحو ما سماه بالكمال.

كما أن الهدف من الحجاج هو إقناع المتلقي، وهو في القرآن يتنوع بين:

– ذكر الحجة والنتيجة؛ الآيات القرآنية..

– الحجاج بالاستفهام؛ النفي، الحصر، النداء،...

–الحجاج بالصور البيانية؛ الاستعارة الحجاجية، التشبيه،..(شابي، 2015، صفحة 224).

مما سبق نلاحظ أن هناك علاقة من الروابط والعوامل الحجاجية، فهما يعملان في الملفوظ إما بالربط بين الحجج والنتائج، أو توجيه وتحديد الإمكانات الخاصة بملفوظ ما.

أنواع الحجج الباديسية:

اعتمد الشيخ مجموعة من الحجج منها حجة الاستشهاد في اعتبار الدعاء عبادة، وقد أورد حديث النعمان بن بشير وحديث أنس و هما مرفوعان، وحجة التبرير في قوله: « وهذا لأن العبادة هي الخضوع والتذلل، لمن بيده الخلق والتصرف والعطاء والمنع. ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر، أو جلب النفع؛ فلذلك عبر عنه في الحديث الأول بأنه هو العبادة، أي معظمها وفي الثاني بأنه مخ العبادة أي خالصها»(أبو هنية، 2019، صفحة 118)، كما دعّم رأيه بحجة المثل والتي تظهر في قوله: « ألا ترى لو أن شخصا قام للصلاة بدون وضوء مستحلا لذلك، فلما أنكرنا عليه قال: أنني لا أعتبر هذه الأفعال والأقوال عبادة، ولا أسميها صلاة. أترى ذلك يجيز فعله، ويدفع عنه تبعته؟؟كلا!!و لا خلاف في ذلك بين المسلمين. »(بن باديس، 1995، صفحة 119) أما حجة الاتجاه فتتجلى في قوله: « بل قد حكموا بردته إن كان يفعل ذلك ويراه حلالا، لأنه يكون قد أنكر معلوما من الدين بالضرورة. »(بن باديس، 1995، صفحة 119).

فغايته التي رمى إليها من خلال هذه الحجج هي: التوضيح وتكثيف الأفكار في الذهن، والبرهنة على صحة دعواه، وكذا التحذير مم قد يفسد عقل الإنسان وعقيدته.

الشروط التي نجحت بها الحجة(الشهري، 2004، صفحة 469) الباديسية:

شرط المضمون القضوي: حيث أتى ابن باديس بأحكام جازمة تأتي كلها على قضية هي: الدعاء هو العبادة. من بينها:

- مفهومه للدعاء – تقدير المحذوف في الآية – عدم قدرة المدعوين على كشف الضر أو تحويله على من دعوهم.
- دلالة الآية على أنّ الدعاء عبادة – الاستدلال على هذه الدلالة من السنة النبوية .

الشرط الجوهري: فقد بيّن ابن باديس تلك الأحكام للمستمع(القارئ) باجتهاد منه بغية إقناعه بصواب مَقوله.

شرط الصدق: من خلال تفسيره للآيتين يتّضح أنّه كان صادقا في دعواه، كما تبيّن صدقه في القضايا التي جاء بها.

الشرط التمهيدي: مهّد ابن باديس لمستمعه(القارئ) ووضّح دعواه؛ ذلك أنّه اتّجه في الأخير إلى مجال التطبيق، مركّزا على الداء الذي يعاني منه الشعب الجزائري المسلم وغير الجزائري من دعاء الأحياء والأموات، فقد أتى بمجموع هذه القضايا ليثبت دعواه.

خاتمة

في الختام لقد سعى ابن باديس في تفسيره هذا إلى وضع برنامج عملي يخدم غرضه، ويضمن فعّاليته؛ فقد نحى منحا اجتماعيا نفسيا، تربويا، لذلك استعان بخاصية الحجاج ليحقق هدفه التفسيري، والملاحظ للتقنية والمخطط الحجاجي في تفسيره للآيتين أن:

- خطابه يكتسب طابعه الحواري الحجاجي؛ ذلك أنه يستدرج القارئ(المستمع) ليثبت دعواه، مستخدما مجموع الحجج والأدلة المدعمة لهذه الدعوى. هذا على العموم ومن جهة أخرى فالمفسّر له هدف أسمى من هذا هو تبصير الشعب الجزائري عن طريق كشف ما يعاني من داء وبحث أنجع الدواء.
- عناصر خطابه الحجاجي تتمثل في: المفسّر نفسه/ الخطاب الأصلي/ السامع(المتلقي).
- يقع خطابه هذا بين سلطتين هما: النص المفسّر و المتلقي.
- بلوغ غاية المفسّر هو أهم ما يمكن أن يوضّح مكانة الخطاب الحجاجية.

قائمة المراجع

1- ابن باديس عبد الحميد ، (1995)، *تفسير ابن باديس في مجالس تذكير من كلام الحكيم الخبير* (المجلد ا). (تحقيق أحمد شمس الدين، المحرر) بيروت لبنان: دار الكتب العلمية.

2- ابن باديس عبد الحميد. (بلا تاريخ). *تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.* (توفيق محمد شاهين، و محمد الصالح رمضان، المحررون).

3- البخاري محمد بن اسماعيل. (بلا تاريخ). *صحيح البخاري* (الإصدار الأول). بيروت: المكتبة الثقافية.

4- جربوعة إيمان ، (مارس 2016)، آليات تحليل الخطاب القرآني في ضوء المناهج اللسانية الحديثة–قراءة في بعض إجراءات المنهج التداولي، العدد التاسع، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، جامعة أدرار.

5- زكوب عبد العالي باي ، (2011). تفسير عبد الحميد بن باديس منهجه وخصائصه. *مجلة الإسلام في آسيا، 8*(2).

6- شابي سعاد ، (ديسمبر 2015)، الأفعال الكلامية والأفعال الحجاجية، في سورة النمل مقاربة تداولية، العدد الثامن، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، جامعة أدرار.

7- الشهري عبد الهادي بن ظافر ، (2004). *استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية* (المجلد ا). بيروت لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

8- طالبي عمار ، (1417هـ–1997م). *آثار بن باديس.* الجزائر: الشركة الجزائرية .

9- طه عبد الرحمن ، (2000). *في أصول الحوار وتجديد علم الكلام* (المجلد II). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

10- العزاوي أبو بكر ، (2006). *اللغة والحجاج.* الدار البيضاء: العمدة في الطبعة.

11- عيد يوسف ، (1992). *شرح ديوان جرير* (المجلد ا). بيروت: دار الجيل.

12- القشيري أبو الحسن مسلم، (2000). صحيح *مسلم* (الإصدار الأول، المجلد ا). (محمد فؤاد عبد الباقي، المحرر) بيروت لبنان: نشرات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية.

13- ابن منظور، (1414). لسان العرب (المجلد III). بيروت، لبنان: دار صادر.

14- الناجح عز الدين ، (2011)، *العوامل الحجاحية في اللغة العربية* (المجلد ا). تونس: مكتبة علاء الدين

15- النقاري حمو ، (2006). *التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه* (المجلد ا). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

16- أبو هنية أبو هنية عمر ذياب ، (2 سبتمبر, 2019)، الروابط والعوامل الحجاجية في مقامات الهمداني. *المجلة العربية للنشر العلمي*.

17- الواحيدي أبو الحسن أحمد ، (1991). *أسباب نزول القرآن الكريم*. (كمال بسيوني، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.